التحولات الاجتماعية و الاقتصادية في المغرب الإسلامي خلال مرحلة اضمحلال الدولة الموحدية

أ : صديقي عبد الجبار،المركز الجامعي نور البشير البيض

الملخص :

كان سقوط الدولة الموحدية إيذانا بتغير جذري شهده الغرب الإسلامي على مستوى جميع الأصعدة خاصة الاقتصادية و الاجتماعية ، و كنتيجة لذلك حدث تحول عميق في بنية و قواعد التعامل الاقتصادي في ظل الظروف الأمنية و السياسية التي خلفها سقوط دولة ، كما تغيرت قوانين التجارة ومعها الخارطة العامة للمبادلات التجارية الداخلية والخارجية للغرب الإسلامي في ظل ظهور كيانات سياسية متناحرة على أنقاض الدولة البائدة ، وقد صاحب التحولات التي مست اقتصاد المنطقة تغير في التركيب الاجتماعية مع حدوث حركة هجرة واسعة تزامنت مع تغير في التركيب الاجتماعي بظهور طبقات مجتمعية متنفذة انتهت لها شؤون الرياسة و التجارة .

Abstract:

The fall of the Almohad dynasty was the cause of radical change in the Muslim West In all fields, especially economic and social levels. As a result, a profound transformation has occurred in the structure and rules of economic deal because of the security conditions and the political left by the fall of the State.

trade laws and general map of internal and external trade exchanges in Islamic -Western changed with the emergence of rival political entities on the ruins of the defunct state, and it led transformations that touched the region's economy, a change in the social structure with the occurrence of extensive migration movement coincided with the change in the social structure emergence of a community of influential layers Controlled the preside affairs and Trade.

تمهيد

شكل انهيار الدولة الموحدية انتكاسة تاريخية و حضارية كبرى شهدها الغرب الإسلامي في النصف الثاني من القرن السابع هجري ، نتيجة للانعكاسات العميقة التي خلفها سقوط دولة بحجم دولة الموحدين التي لعبت دورا محوريا في التوحيد السياسي و العسكري لبلاد الغرب الإسلامي ، ناهيك عن الازدهار الفكري و الحضاري الذي عرفته فترة حكمها ، غير أن الأزمات السياسية و الاقتصادية و الفكرية و الاجتماعية التي لحقت بها اجتمعت لتدخلها في مرحلة من الانحلال و الانهيار ، و رغم أن الدراسات و البحوث التاريخية تناولت و باستفاضة الجوانب السياسية و العسكرية لتاريخ الأزمات الموحدية ، إلا أن المعلومات و الدراسات حول الأزمات الحضارية التي عرفها الغرب الإسلامي خلال فترة حكم الموحدين لازالت شحيحة و دون التطلعات ، ما دفع عديد الباحثين للعمل على إزالة بعض من اللبس حول التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للدولة الموحدية خاصة في مرحلة التداعي و السقوط .

تراجع المكانة الاجتماعية لقبائل مصمودة

على إثر الأوضاع المأساوية و حالة الفوضى التي شهدها الغرب الإسلامي في طور اضمحلال الدولة الموحدية ، انهار ذلك الصرح القبلي الشامخ ، الذي كان ينتظم عقده من سائر قبائل المصامدة ، و الموحدين ، كلما جد الجد أو أقبل الجهاد، وكانت هذه القبائل تنقسم إلى مجموعتين: الأولى قبائل المصامدة ، و الثانية قبائل الموحدين [1] ، فأما المجموعة الأولى فكانت تضم قبائل هسكورة و دُكالة و هيلانة و حاحة وغيرها، من قبائل المصامدة ، وكانت هسكورة أكبر هذه القبائل عددا و أكثرها بطونا ، ومن بطونها قبيلة جنفيسة ، وكانت لضخامتها ووفرة حشودها ، تحتل مكانة ملحوظة، بين قبائل الدولة الموحدية ، بيد أن أهلها كانت تغلب عليهم البداوة ، لا يخالطون الموحدين، فيما انغمسوا فيه من حياة الحضر والترف، بل يؤثرون التزام جبالهم المتشعبة من جبال الأطلس الشامخة، والممتدة في جنوب

شرقي مراكش حتى مشارف السوس الأقصى ، ولما غلب بنو مرين الزناتيين على الدولة الموحدية ومحوا آثارها، اضطهدوا قبائل مصمودة و على رأسها هسكورة وفرضوا عليها المغارم الثقيلة، فلزموا السكينة ، و لبثوا معتصمين بجبالهم ، ولم يرتضوا خدمة الدولة الجديدة، ولم يدينوا بدعوتها، وكانت كلما اشتدت عليهم وطأة عسكر بني مرين ردوهم بدفع الإتاوات من آن لآخر.

وهكذا لبثت هسكورة بعيدة عن الولاء لبني مرين ، لا تدين بطاعتهم ، إلا عن طريق الجزية، كما حدث أيام السلطان أبي الحسن المريني ، وأحيانا تناوئهم متى شعرت بضعف الدولة وتراخيها [2].

كذلك استقلت بقية قبائل المصامدة غربي مراكش، مثل دكالة و هيلانة و حاحة ، بأمرها و رياستها ، وكانت منازلهم تمتد غربا حتى شاطىء المحيط[3] .

أما المجموعة الثانية فكانت تضم قبائل الموحدين ، ومنازلها على مقربة من مراكش، وكانت منها سبع قبائل امتازت بالسبق والإيثار على غيرها، لاعتناقها دعوة المهدي ابن تومرت، قبل أن يتوطد أمره، أو بعبارة أخرى قبل افتتاح مراكش ، وهذه القبائل السبع تنتمي إلى المصامدة، وهي هرغة قبيلة الإمام المهدي ، و هنتاتة ، وتينملّل و هم الذين بايعوه مع هرغة في بداية أمره ، و جنفيسة ، و هزرجة، و جدميوة و ريكة ، وتلحق بها قبيلة ثامنة، هي كومية قبيلة الخليفة عبد المؤمن ابن علي كبير صحابة المهدي ، و كانت هذه القبائل الثماني لسبقها في البيعة و الطاعة ، تتمتع بمزايا الإيثار في السلطان والنفوذ، وتولى المناصب والقيام بمهام الأمور، فلما انهارت الدولة الموحدية ضعف أمرهم، وأضحوا من الرعايا العاديين للدولة الغالبة [4] ، وقد اندثرت قبيلة هرغة - قبيلة المهدي - بعد سقوط الدولة بقليل، وفقدت كل مكانة ونفوذ ، وكذا كان مصير قبيلة أو أهل تينملّل، وهم الذين نزل بينهم المهدي وأعلن إمامته، وأنشأ داره ومسجده ، وكان لهم شأن في مناصب الدولة، وعملاتها، ولكن رجالاتهم

انقرضوا غير بعيد، وملك أمرهم غيرهم من زعماء المصامدة ، وكان قبر المهدي لديهم بتينملّل، ما يزال حتى العصر الذي كتب فيه ابن خلدون تاريخه، حوالى سنة 780 هـ، ما يزال مزاراً مرموقاً، وعلى ما كان عليه من التجلة والتعظيم ، يتلى به القرآن والأحزاب باستمرار ويقوم عليه الحجاب والحفاظ ، وتترى إليه الوفود من كل فج، وتقدم الصدقات نذرا وتبركا[5].

أما هنتاتة، فكانت من أشد قبائل الموحدين بأسا وتمكنا في الدولة، وذلك لما كان عليه زعيمها الشيخ أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتى، أحد الصحب العشرة، من مكانة ملحوظة لدى المهدي، وقد لبث أبناؤه يتبوءون أرفع مناصب الدولة، وانتهى زعيمهم أيام الناصر، الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، بأن غلب على ولاية إفريقية، ومهد ملكها لعقبه، فأقاموا بها دولة مستقلة عظيمة[6] ، و لما انتهت الدولة الموحدية، لبثت هنتاتة في موطنها القديم بجبال درن، على مقربة من مراكش، وكانوا أيام بني مرين، من القبائل الخاضعة لسلطان الدولة الجديدة، يولون عليها من شاءوا لضبطها و تحصيل جبايتها.

وكانت قبيلة جدميوة تابعة لهنتاتة ، وتينملل ، وجبلهم بجوار جبل هنتاتة، فلما انهارت الدولة افترق أمرهم، وخضع بعضهم لبني مرين، وامتنع البعض الآخر عن الطاعة. وكانت وريكة كذلك من القبائل المجاورة لهنتاتة، وكانت بينهم فتن وحروب مستمرة هلك فيها كثير من الفريقين المتخاصمين[7] .

و هكذا كانت الخاتمة المأساوية ، لتلك المجموعة من القبائل البربرية التي فقدت هيبتها أمام تنامي القوة الزناتية ، التي همشتها و أفقدتها مكنتها كطبقة حاكمة لها من الامتيازات الشيء الكثير [8]و هذا ما يعني أن مصمودة فشلت في الاحتفاظ بالدولة التي قامت على أكتافها و لم تستطع الإبقاء على القبائل التي كانت ترزح تحت سيطرتها وهو ما يفضي إلى أن العلاقة بين مصمودة و بقية القبائل كانت علاقة غالب بمغلوب[9] .

التحركات البشرية بالمغرب الإسلامي عقب سقوط الدولة الموحدية

ساهم اضمحلال الدولة الموحدية و تهاوي سلطانها بالأندلس أمام تسارع حركة الاسترداد في هجرة أعداد غفيرة من المسلمين الفارين من القواعد الإسلامية التي سقطت في أيدي النصارى هروبا بدينهم و أنفسهم من اضطهاد النصارى نحو غرناطة التي ذاقت بالمهاجرين إليها الذين بلغ عددهم ست مئة ألف مشكلة إحدى أضخم التجمعات السكانية في العالم في هذه الفترة ، و نحو المغرب الذي شكل بالنسبة لهؤلاء المهاجرين الملاذ الآمن و المصير المحتم[10] .

ولم يكن المسلمين وحدهم المعنيين بهذه الهجرة الكبيرة إلى المغرب ، بل حتى اليهود كان لهم نصيبهم من الاضطهاد النصراني في الأندلس ، الأمر الذي يفسر هجرتهم إلى المغرب الذي لم يختلف عن غيره من المجتمعات الإسلامية تسامحا مع اليهود الذين ازدادت أعدادهم في هذه الفترة و في الفترات التي تلتها ، وهذا ما توضحه جالياتهم بالعديد من الحواضر المغربية أين أقام اليهود آمنين مطمئنين متمتعين بجميع حقوقهم المادية و المعنوية كفاس و مكناس و مراكش و تلمسان و بجاية و تونس [11] .

و نلاحظ أن الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب انحصرت في بدايتها على حواضر افريقية لأسبقيتها إلى الاستقرار بعد استقلال الحفصين على الموحدين ، وكذلك لتطورها الحضاري و العمراني ، بالإضافة إلى العلاقة الوطيدة التي ربطت السلطان الحفصي أبو زكريا بالأندلس منذ كان واليا على اشبيلية[12] .

وقد أصبح الأندلسيون بعد هجرتهم إلى بلاد المغرب يشكلون جاليات كبيرة داخل حواضره ، لهم بساتينهم و حقولهم و ديارهم و حرفهم و عاداتهم وتقاليدهم ، و الجدير بالذكر أن هؤلاء المهاجرين كانوا في أغلبهم من سكان الحضر و من الطبقة المثقفة ، و لذلك شكلوا مساهمة فعالة في كنف الدويلات الناشئة ، فقد كان تأثيرهم قوي و فعال و إيجابي على

عادات السكان و طريقة حياتهم كما ساهم هؤلاء في تطوير الثقافة العربية الإسلامية بالمغرب عبر الطرق و الأساليب العلمية الأندلسية الحية[13] .

و احتل الأندلسيون مكانة مرموقة في السلك الإداري و التوظيف الديني و شؤون الأمارة لما تميزوا به من كفاءة و مستوى علمي و إخلاص فقد تولى أبو بكر ابن خلدون وزارة المالية بالدولة الحفصية و تولى ابنه محمود الحجابة ثم رئيس الوزراء[14] .

و يرجع مرسيه التحضر المتسارع لبني عبد الواد للتأثير الأندلسي و يذكر في هذا السياق إقدام أبو حمو اصطفاء عائلة " الملاح " الذين جاءوا من قرطبة و توليته لأربعة وزراء منهم[15].

و من التداعيات الاجتماعية لهذه الهجرة ظهور فئة اجتماعية جديدة مشكلة من المسلمين الذين آثروا البقاء في مساكنهم و مدنهم التي طالها المد النصراني ، و أطلق على هذه الفئة " المدجنين "

– Mudejares - ، شكلت هذه الفئة طائفة اجتماعية كبيرة داخل الممالك النصرانية الناشئة بالأندلس خاصة شرق الأندلس في مدينتي بلنسية و مرسية[16] ، و قد تعرضت هذه الفئة لانتقادات من طرف العلماء الفقهاء بسبب إيثارهم البقاء في بلاد الكفر على الهجرة إلى بلاد الإسلام و من أمثال هؤلاء العلماء ، ابي العباس أحمد بن يحيا بن محمد التلمساني الونشريسي الذي كتب في ذلك رسالة سماها " أسمى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى و لم يهاجر و ما يترتب عليه من العقوبات و الزواجر" [17].

و كنتيجة لسقوط الدولة الموحدية أيضا نشطت حركة الهجرة الداخلية بالعدوة المغربية ، حيث تحركت قبائل زناتة من بني عبد الواد و المرينين من مواطنها في شمال الصحراء الكبرى بين الصحراء و تفيلالت نحو المناطق التلية الشمالية حيث استقرت قبائل بني عبد الواد شرق و جنوب تلمسان في نواحي المدية و مليانة و سهل شلف ، بينما نفد بني مرين

إلى الوادي ملوية وزا في منطقة مرصيف تاوريرت بين الأطلس الأوسط و الريف مستغلين انحلال النفوذ الموحدي ، و تمكنوا من الزحف على سلا ثم تامسنا ثم فاس و تازة عبر جبال فازاز إلى تلادلا و أحيانا إلى سجلماسة[18] .

و كنتيجة لذلك انسحبت قبائل مصمودة إلى الجبال و البوادي غربي مراكش هنتانة إلى جبل درن بالقرب من مراكش[19] .

و لم يستثن العرب من ذلك ، فبعد استيلاء بني عبد الواد على تلمسان و ضواحيها انتقلوا إلى المدن و الحواضر ، لتحل محلها زغبة من أوطانها في الصحراء إلى التلال و السهول ، و سيطروا على ما بقي من البربر ، و انتقل عرب المعقل إلى أوطان زغبة بالصحراء و استبدوا بمن بقي فيها من عرب زغبة[20] .

و في المغرب الأقصى رحل يعقوب ابن عبد الحق القبائل العربية المقيمة بدرعة إلى مراكش و أحوازها حتى يكونوا تحت رقابته[21] ، و استقرت قبائل جشم و هي : سفيان و الخلط و العاصم و بنو جابر في تامسنا ، و أقامت قبائل المعقل في السوس الأقصى ، أما قبائل رياح فقد أقامت في أزعار و بلاد الهبط[22] .

أما الحفصيون فنقلوا بعض بطون رياح إلى ضواحي القيروان و بلاد قسطيلية[23] ، و كنتيجة لقيام ثلاث دول متنازعة على أنقاض الدولة الموحدية اضطرت كل دولة إلى الاعتماد على القبائل العربية التي جاورتها للحفاظ على أمنها و حدودها[24] .

تنامي مكانة اليهود في المجتمع

تذهب عدة مصادر ومراجع إلى أن فترة حكم الموحدين كانت أسوء أيام اليهود في بلاد المغرب إذ تعرضوا لأشنع أنواع الاضطهاد و التضييق[25] ، فقد أعلن بنو عبد المؤمن صراحة أنه

لا مجال لديانة أخرى في المناطق الخاضعة لهم لغير الإسلام[26] ، و أصدر عبد المؤمن بن علي في ذلك مرسوما يخبر فيه اليهود بين الإسلام أو الهجرة أو سفك دمائهم[27] ،كما ألزم الخليفة الموحدي المنصور اليهود بلباس خاص يميزهم عن بقية المسلمين[28] ، بسبب أذيتهم للمسلمين و التأمر عليهم و التجسس على الجيش و نقل أسرارهم إلى الأعداء و هو ما يبرر هذه العدوانية التي مارسها الخلفاء الموحدين ضد اليهود[29].

و لم يسلم اليهود من أعمال السلب و النهب و القتل خاصة في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة بسب النزاعات التي عمت ربوع الدولة[30] .

و على إثر سقوط الدولة الموحدية عاد اليهود لتبوء مكانة هامة داخل المجتمع المغربي ، فقد تمكن اليهود من الظهور مجددا كعنصر هام داخل التركيب الاجتماعي للدويلات الناشئة على أنقاض الدولة الموحدية ، و قد ساعدت الظروف السائدة في بلاد المغرب الإسلامي على تزايد هذه العناصر داخل المجتمعات المغربية ، فقد كانت الحملة التي خاضتها الكنيسة ضدهم عاملا حاسما في هجرة أعداد كبيرة منهم إلى حواضر المغرب ، و نلاحظ أن هؤلاء اليهود المهاجرين كانوا من "السفرديون"[31].

و قد شكلت هذه الطائفة جالية كبيرة في عواصم المغرب مستغلين التسامح الديني و الوقف الذي أظهرته الحكومات الناشئة اتجاههم ، خاصة و أن سكان المغرب أحسنوا استقبالهم ووفادتهم و سمحوا لهم بالإقامة في جوارهم ، و قد استطاع اليهود في ظل هذا التسامح أن يكونوا بيع لهم في بلاد الغرب منها بيعة توات[32]، و يذكر البكري أن فاس كان يسكن بها خلق كبير من اليهود ، و شهد المغرب في بعض مدنه تجمع جاليات منهم شكلت أكثرية ساحقة كدبدو و صفور و الصويرة و ميسورة[33] . و كان اليهود يؤدون شعائرهم الدينية في حرية تامة ، خاصة و أن الفقهاء أفتوا بأن الوفاء لأهل الذمة واجب[34] .

و لعب اليهود دور كبير في الحياة السياسية ، حيث كان لهذه الطائفة دور خفي داخل البلاطات الملكية نظرا لاتصالهم السري بالحاشية و الأسر المالكة و لتعاطيهم الحرف و صناعات فنية تمت للنساء بصلة كبيرة و ترتبط بميدان الانفعال و الوجدان أيما ارتباط ، و عن طريق هذه الوسائل السرية النفسية استطاعوا استمالة قلوب الملوك و النيل من عواطفهم[35] و هو ما يفسر لنا الدور الذي قام به اليهود و النفوذ الذي حصلوا عليه ، فقد كان منهم ندماء و خزنة و مدبري شؤون خاصة و وزراء[36] ، و الشاهد أن حلبقة بن حبون بن زمامة كان حاجبا للسلطان يعقوب بن عبد الحق ، كما تولت أسرة بني وقاصة اليهودية قهرمة القصر السلطاني في عهد يوسف بن يعقوب بن عبد الحق[37] .

و انتعش دور اليهود كذلك في الحياة الاقتصادية فاهتموا بالتجارة خاصة منها تجارة العبور و سيطروا على أسواق الذهب ، و تفردوا بصناعات مختلفة خاصة بهم بصفة عامة ، كالصياغة و الصيرفة وضع الأقمشة و الألبسة السنوية ، ناهيك عن ممارستهم للفلاحة و امتلاكهم للاقتطاعات الفلاحية الخصبة بالقرب من فاس و تلمسان و تونس[38].

غير أن اليهود – غالبا – ما كانوا يستغلون تسامح السلطات معهم فينكثوا بما التزموا ، و يتآمرون ضد المسلمين ويتجسسون عليهم و يحاولون نشر الفساد بينهم و هو ما دفع الحكام إلى اتخاذ إجراءات عقابية ضدهم في الكثير من الأحيان[39] .

تفكك اقتصاد المغرب الإسلامي

صاحب اختفاء الدولة الموحدية التدريجي أحداث سياسية جسيمة أثرت تأثيرا كبيرا على المقومات الاقتصادية لبلاد المغرب الإسلامي في مختلف نواحيه بنسب متباينة فبينما فقد الأندلس جل أراضيه تحت وطأة المد النصراني[40]، تهاوت معها الأهمية الاقتصادية لهذه المدن التي طالما شكلت مصدرا هاما لمختلف المنتجات الزراعية و الصناعية و مجالا هاما للمبادلات

التجارية[41] ، ما أفقد المغرب الإسلامي إحدى أهم حلقاته الاقتصادية بانتكاس الحياة الاقتصادية في هذا القطر[42] .

أما في العدوة المغربية فقد اشتد الصراع بين الموحدين والمرينين[43] من جهة و بين بني زيان و بني مرين من جهة أخرى[44] ، كما بادر بنو حفص بإعلان الاستقلال عن الموحدين[45] و انعكست هذه الأحداث على الأوضاع الاقتصادية ، حيث انعدم الأمن الذي لا يتحقق إلا بوجود سلطة مركزية قوية فتراجعت التجارة و ترك الفلاحون أراضيهم و تخلى الحرفيون عن حرفهم[46] ، فكان أن فقدت الكثير من المراكز الاقتصادية أهميتها بل و اختفى الكثير منها بسبب فقدانها لأهميتها الاقتصادية[47] .

و في افريقية أيضا أتى صراع الحفصيين مع بني غانية و تجاوزات العرب الهلالين على الكثير من مقوماتها الاقتصادية و ليس أدل على ذلك من قول التجاني : " ....و وصلنا إلى صفاقس ظهرا .... و كانت قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها أفسدها العرب ..." [48].

و مما أسفرت عنه الفوضى العارمة التي صاحبت سقوط الدولة الموحدية أن توقفت حركة العمران و البناء و أصاب الدمار ما شيده الموحدون في طور الازدهار ، ففي فاس اضمحلت الكثير من المنشآت الصناعية و العمرانية[49] ، وكثر الخراب في ديار مراكش[50] و في مكانس اندثرت مدائنها القديمة ولم يبق سوى الصوامع و الأطلال العتيقة[51] ، و أما الرباط فتهدم جامع حسان الذي نقضه السعيد ليصنع بخشبه الأجفان الغزوانية[52] ، و في هذه الفترة خربت مدينة مغيلة[53] التي لا تزال أطلالها قائمة غرب فاس[54] ، و هدم الموحدون أسوار فاس و سلا و سبتة ، بل و خربوا مدن بأكملها خلال صراعاتهم المريرة مع مناوئهم[55] ، واختفت مدينتين كانتا تقعان شمال مدينة فاس و هما صاع و بني تاودا[56] ، أما سلا فقد دخلها النصارى عام(688 هـ - 1259م) و خربوا الديار و أشعلوا في كل ما وجدوا في ديار المدينة و أسواقها من الأثاث و الأمتعة و الفرش و غير ذلك من السلع[57].

ولم تستثن هذه الوضعية المنشآت الحرفية و دور الصناعة التي تلاشت بسبب تخريبها و هجرة الناس لها ، و تبع ذلك عودة الناس إلى الترحال و الرعي على حساب التمدن هروبا من الواقع الأمني المزري داخل المدن و هو ما أثر سلبا على النشاط الحرفي و التجاري [58].

وكان من انعكاسات تصاعد العصيان القبلي على الدولة منذ بداية القرن السابع هجري أن فقدت الكثير من مواردها الاقتصادية خاصة في مجال الجباية بخروج أراضي واسعة عن طوع الدولة , حتى أنه في الغالب كان لا يربطها بالعديد من المناطق سوى ضرائب هزيلة تجمعها أثناء حملاتها على المناطق الخارجة عليها[59] , واستمر الحال على ذلك الوضع حتى في بداية نشأة الدويلات القائمة على أنقاضها .

فعندما احتل السلطان الحفصي أبو زكريا مدينة تلمسان سنة(1242/640) استولى من على الضرائب و الجباية[60] ، وكذلك فعل السلطان المريني أبو عنان عندما ارتحل إلى بسكرة بجيشه ونزلوا جبل اوراين واقتضوا جبايته ومغارمه[61] ، و نفس الأمر قام به العرب في الأراضي التي وقعت تحت سيطرتهم[62] ، و هذا ما يعكس واقع الفوضى الجبائية التي سادت بسبب سقوط الدولة و غياب السلطة المركزية .

و ترتب عن تفكك الدولة الموحدية أن تقاسمت الدول التي قامت على أنقاضها أي دولة الحفصيين في المغرب الادني و الزيانيين في المغرب الاوسط و المرينيين في المغرب الاقصى و بني الاحمر في الاندلس اقتصادها ، فأصبحت كل دولة تستحوذ على جزء من علاقاتها الاقتصادية بنسب متفاوتة و أضحت هذه الدول تمارس نشاطاتها الاقتصادية في إطار الحدود التي وقعت تحت يدها حيث أن لكل دولة مجالها الجبائي و الزراعي و الصناعي و لها موانئها و طرقها التجارية التي تعتبر جزءا من اقتصادها[63].

تغير الخارطة التجارية لبلاد المغرب الإسلامي

و مما أعقب سقوط دولة الموحدين حدوث تغير واسع في المراكز و الطرق التجارية و حتى في القواعد و القوانين التجارية الداخلية و الخارجية بسبب التطورات السياسية التي واكبت سقوط الدولة ، حيث تمركزت التجارة بالمدن الساحلية على حساب المدن الداخلية بسبب انعدام الأمن و انتشار أعمال القرصنة و اللصوصية و قطع الطرق التي مارستها القبائل المناوئة للسلطة المركزية[64] ، وقد وضح ابن خلدون ذلك في انحصار سلطة الدولة في الحواضر الساحلية في محاولة لتفادي الصدام مع الأعراب و القبائل المنشقة ، كما عملت على إرضائهم بمختلف الامتيازات و الاقطاعات[65] ، لكن هذا الضعف الفاحش و انعدام الامن أثر على تجارة السودان و غير وجه التجارة إلى المدن الساحلية[66] .

و من التغيرات التي عرفتها التجارة بالمغرب الإسلامي انحرافها إلى المغرب الأدنى و الأوسط بسبب الوضع الأمني المتدهور في المغرب الأقصى بسبب استمرار الصراع الموحدي المريني و توجه المغرب الأدنى الاستقرار بعد أن تمكن أبو زكريا من القضاء على ثورات بني غانية و تأمين الطرق الصحراوية وهذا ما نفسر به تهافت التجار الأجانب على موانئ الحفصيين[67].

كما أن الصراعات الداخلية بالمغرب الأقصى و استمرار الخطر النصراني بالأندلس و تراجع تجارة سبتة[68] ، أفرز ظهور قواعد تجارية جديدة هي تلمسان و موانئها التي أصبحت واسطة بين سجلماسة و مدن البحر المتوسط (بجاية ، هنين)[69].

و أسفرت هذه التغيرات التي عرفتها المبادلات التجارية بعد انهيار الدولة الموحدية عن تحولات في العلاقات التجارية مع مدن البحر المتوسط (كجنوة ، صقلية ، بيزا ، البندقية ، نابلي ، مرسيليا ، مومبولية و برشلونة و أرغون) إذ أصبحت أكثر توسعا و تنظيما في عهد الزيانيين و الحفصيين[70] .

هذا التحسن الذي عرفته التجارة بالمغرب الأدنى و الأوسط قابله تدهور ظرفي لتجارة عدة مدن و طرق بالمغرب الأقصى كما كان الحال مع تجارة سلا و سجلماسة التي كانت تعتبر إحدى أهم مصادر الذهب نحو البحر المتوسط بسبب استمرار الصراع الموحدي المريني[71] .

و أفرز سقوط الدولة الموحدية تنامي في التجارة الساحلية التي شكلت مجالا أوسع للتجارة -المغربية الأوربية – الأمر الذي أخل بالنشاط التجاري و فتح الباب أمام التفوق الاقتصادي الأوربي على الاقتصاد المغربي و سيطرته على العلاقات الاقتصادية بحوض المتوسط و في غمره هذه الأحداث أرسيت قواعد للتجارة تقنن و تنظم ذلك من خلال عدة اتفاقيات ثنائية[72].

وقد أدى سقوط الدولة الموحدية إلى انتقال النفوذ الاقتصادي من مراكش إلى عواصم الدول الناشئة في المغرب و الأندلس[73] ، و هو ما يطلق عليه ابن خلدون مصطلح " الحوالة الأسواق " في إشارة إلى ما ينجم عن ذلك من ظهور مراكز اقتصادية وتجارية جديدة و علاقات اقتصادية جديدة و ارتفاع أسعار العقارات في العواصم الجديدة و انخفاض في المراكز الاقتصادية القديمة و تحول العلاقات التجارية الداخلية في الدولة القديمة إلى علاقات خارجية في الدول الحديثة[74] .

و في خضم هذه الأوضاع السياسية و الاقتصادية الجديدة تبلورت علاقات تجارية بين دول المغرب ، و ربطت حواضرها بصورة تلقائية نتيجة للوحدة البشرية و المذهبية و تقارب العادات بين السكان ، وكما هو معلوم كانت التجارة تخضع لقاعدتي الحاجة و الأسعار إذ لم تكن العلاقات التجارية تتم بمنأى عنهما لأنهما عاملين مهمين في خلق التبادل التجاري[75] ، كما أسفرت التطورات الاقتصادية و السياسية الجديدة بالمغرب الإسلامي عن

رسم معالم علاقات تجارية جديدة مع مدن البحر المتوسط اتسمت بتراجع تجارة المدن الايطالية و توسع المبادلات التجارية بين مدن المغرب و مرسيليا[76] .

خاتـمة:

أثر سقوط الدولة الموحدية بشكل جوهري في البنية الاقتصادية و الاجتماعية لبلاد المغرب الإسلامي ، حيث انهار الهيكل الاقتصادي بانهيار الدولة التي شكلت حجر الأساس في تنظيمه ووضع قواعده و توفير ظروف ازدهاره ، فالواقع الأمني المتدهور و الهش في هذه الفترة شكل الخطوة الأولى نحو تردي الوضع الاقتصادي بفعل انتشار حالة الفوضى و الفتن ، و التي تعتبر فضاء منافيا للنشاط الاقتصادي بجميع قطاعاته ، و كانت الجباية التي تعتبر موردا أساسيا للدولة أولى ضحايا تدهور الوضع الأمني المتردي إذ سيطرت القوى المناوئة على مناطق عديدة اتخذتها كإقطاعيات جبائية خارجة عن نطاق الدولة ، أما ما بقي فأعطي جله للقبائل المقاتلة إلى جانب السلطة في معاركها المتعددة الجبهات كثمن لذلك.

أما النشاط الزراعي و الحرفي فتدهور بشكل ملحوظ كنتيجة طبيعية لارتفاع قيمة الضرائب و الجبايات و حالة الفوضى و انعدام الأمن ، ما دفع الفلاحين و الحرفين إلى التوجه نحو نشاطات أخرى تجعلهم بعيدين عن هذا الواقع الاقتصادي المتدهور ، خاصة الرعي ، و لم تسلم التجارة من هذا الواقع بسبب انتشار السرقة و قطاع الطرق و الجباية العشوائية ما جعلها تتراجع بشكل ملحوظ خاصة في المناطق الداخلية ، ما أدى إلى نزوح التجارة و التجار إلى المناطق الساحلية خاصة في المغرب الأدنى الذي كان سباقا للاستقرار ، كما يلاحظ في هذه الفترة بداية تفوق المدن التجارية الأوروبية و نخص بالذكر منها مرسيليا و برشلونة و جنوة على المدن التجارية المغاربية كسلا و فاس و سجلماسة و سيطرتها على التجارة في البحر المتوسط .

و من التحولات التي شهدها المغرب الإسلامي في الشق الاجتماعي حدوث نزوح بشري واسع في بلاد المغرب الإسلامي حيث هاجر سكان المدن الأندلسية التي كانت عرضة للتوسع النصراني نحو غرناطة و مختلف المدن المغاربية و يذكر في هذا الشأن أن مدينة غرناطة أصبحت تشكل أكبر كثافة سكانية في هذه الفترة ، و من التغيرات الملحوظة التي شهدها المغرب تزايد الدور اليهودي في المجتمع بعد أن عاشوا سنوات من الضيق و التهميش خلال الحكم الموحدي و يتضح ذلك في الأدوار الاقتصادية و الاجتماعية التي تبوؤها في عهد الدويلات الناشئة على انقاذ الدولة الموحدية .

الهوامش

1- عبد الله عنان ، عنان عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، ج3 ،ط 02، القاهرة، مصر،1990م ص577 .

2- عبد الرحمان ابن خلدون ، **العبر وديوان المبتدأ والخبر** ، ج6 ، تح : سهيل زكار ، دار الفكر، بيروت ، 2000 ، ص 354 .

3- نفسه ، ص 356.

4- نفسه ، ص .266

5- نفسه ، ص359-360 .

6- ابن القنفد القسنطيني ،كتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح : محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص105 .

7- ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، ص370 .

8- مؤنس حسين ، **تاريخ المغرب وحضارته - دول المرابطين والموحدين والحفصي -**، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992م، .170

9- روجي لوتورنو، **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر** ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس، ص125

10- محمد بن احمد شقور ، **مظاهر الثقافة المغربية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ/ 1985م ، ص 33 ؛ عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 92 – 93 .

11- عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 39 – 40 .

12- جورج مارسيه ، **بلاد المغرب و علاقاتها ببلاد المشرق في العصر الوسطي** ، تر: محمود عبد الصمد هيكل ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1931، ص 344 – 345 .

13- ناصر الدين مولود سعيدوني ، **التجربة الأندلسية بالجزائر - مدرسة بجاية الأندلسية و مكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط (ق 6 – 7 هـ / 12 – 13 م) -**، ندوة الأندلس قرون من التقلبات و العطاءات ، مكتبة الملك عبد العزيز ، الرياض ، 1414 – 1993 ، ص 81 .

14- جورج مرسيه ، المرجع السابق ، ص 345 ؛ محمد الأمين بلغيث ، فصول في التاريخ و العمران بالمغرب الإسلامي ، ط1 ، منشورات انتر سيني ، الجزائر ، 1428 – 2007 ، 62-63 .

15- جورج مرسيه ، المرجع السابق ، ص 338 .

16-عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 56 .

17- عبد الرحمان علي حجي ، **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (92هـ - 897هـ/ 711م 1492م)**، ط2 ، دار القلم ، دمشق ، 1981، ص 531 .

18- أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، **كتاب البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب** ، ج4، (جزء خاص بالموحدين)، تح : محمد إبراهيم الكتاني و آخرون ، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1985 ، ص 440 .

19- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 970 .

20- مصطفى أبو ضيف أحمد عمر ، **القبائل العربية في عصري الموحدين و بني مرين** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982، ص 155 .

21- علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي ، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرنية**، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 ، ص 138 .

22- أحمد أبو العباس الناصري ، **كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى** ، ج3 ، دار الكتاب، الدّار البيضاء، 1955 ، ص 31 – 32 .

23- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 32 – 37 .

24- أبو ضيف أحمد عمر ، المرجع السابق ، ص 334 .

25- حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين**، ط 01، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1980 ، ص 368 .

26- ألفريد بل ، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي** ، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، ط3 ، دار الغرب الإسلامي،1987م، ص 326 .

27- أبو محمد عبد الله بن أحمد التيجاني ، **رحلة التيجاني** ، تقديم : حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1981 ، ص 347 .

28- ابن عذاري ، المصدر السابق ، قسم الموحدين ، ص356 .

29- شرقي نوارة ، **الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (524 – 667) (1126 – 1268)** ، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط ، إشراف : عبد العزيز محمود لعرج ، جامعة الجزائر ، 2008، ص 74 .

30- William Carverly , , Hosting Dynasties and fars: chronicling the religious history of a Medieval Moroccan Oasis City , In partial , p 37 .

31- محمد بن أحمد ابن شقور ، المرجع السابق ، ص 220 .

32- الحسن السائح ، **الحضارة الإسلامية في المغرب** ، ط2 ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1986، ص 269 – 270 .

33- عبيد الله بن عبد العزيز البكري ، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، نشر دي لان، 1965.، ص 115 .

34- كمال السيد أبو مصطفى ، **جوانب من الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الدينية و العلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل و فتاوى المعيار المعرب للونشريسي** ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 1996 ، ص 38 .

35- السلاوي ، المرجع السابق ، ج3 ، ص99 – 100 .

36- محمد شقور ، المرجع السابق ، ص41 .

37- عيسى الحريري ، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ/1213م- 869هـ/1465م)**، ط 01، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1405هـ/ 1985م ، ص 316 – 319 .

38- عبد الرحمان بشير ، **اليهود في المغرب العربي(22-462هـ/642-1070م)**، ط1، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، ص87-93 .

39- نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي ، **الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني " 685 – 706 هـ / 1286 – 1306 م "** ، دراسة سياسية حضارية ، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، إشراف : عبد الواحد ذنون طه ، جامعة الموصل ، 1425 – 2004 ، ص 91 .

40- عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ج3 ، ص 388 .

41 ، ط1 ، ، دار الفرقان ، عمان ، 1404هـ - - أبو رميلة هشام ، **علاقات الموحدون بالمماليك النصرانية و الدول الإسلامية في الأندلس** 1984م.، ص 375 .

42- عاشور بوشامة ، **علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب و الأندلس** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي ، إشراف : حسين أحمد محمود ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، 1411 – 1991، ص 290 .

43- أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر ، **كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين** ، تح : عبد الوهاب بن منصور، مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الملكية الرباط، 1962، ص 10 .

44- بلعربي خالد ، **التطور السياسي ، و الحضاري لدولة بني عبد الواد** ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي ، إشراف : عبد الحميد حاجيات ، جامعة الجيلالي اليابس ، بلعباس ، 2003 – 2004 ، ص04 .

45- أبو عبد الله الرعيني ابن أبي دينار ، **المؤنس في أخبار إفريقية و تونس**، ط1، تونس، 1967، ص 163 .

46- بولقطيب حسين ، **جوائح و أوبئة ، عهد الموحدين** ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء.، ص 102 – 103 .

47- عبد الواحد المراكشي ، **كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح : محمد السعيد العريان ومحمد العلمي، القاهرة، 1949 ، ص 417 .

48- التيجاني ، المصدر السابق ، ص 65 – 68 .

[49]- ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، ص 66 .

50- ابن عذاري ، المصدر السابق ، قسم الموحدين ، ص 485 .

51- محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي المكناسي ، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، الرباط، المغرب،1371هـ/1952م.، ص 32 – 33 .

52- ابن أبي زرع ، الذخيرة ، ص 66 .

53- ابن أبي زرع ، **كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972، ص 207.

54- محمد المنوني ، **الإمبراطورية الموحدية في طور الانحلال** ، مجلة دعوة الحق ، العدد : 02 ، الرباط ، 1964، ص 58 .

55- بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 10 .

56- عبد الله محمد الشريف الإدريسي ، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد ، ص 244 .

57- ابن عذاري ، المصدر السابق ، قسم الموحدين ، ص 424 .

58- بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 183 .

59- عز الدين عمر موسى ، **النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري** ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1424-2003، ص 336 .

60- الزركشي ، **تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**، تح : محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966 ، ص 29 .

61- السلاوي ، المرجع السابق ، ج3 ، ص 204 .

62- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص .

63. 290 - عاشور بوشامة ، المرجع السابق ، ص

64- LE COMTE DE MAS LATRIE , **relation et commerce de l' Afrique septentrionale** , librairie de frimindidot , paris , 1886 , p 151

65- مزدور سمية ، **المجاعات و الأوبئة في المغرب الأوسط (588 – 927 هـ / 1192 – 1520 م)**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط ، إ : محمد الأمين بلغيث ، جامعة منتوري ، قسنطينة 2008 – 2009، ص 99 .

66- أحمد عزاوي ، **رسائل موحدية - مجموعة جديدة-**، تح: ، المغرب، ط 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 1416هـ/1995م ، ص 206 .

67- الزركشي ، المصدر السابق ، ص 25 ؛ ابن قنفذ ، المصدر السابق، ص 112 .

68- ابن عذاري ، المصدر السابق ، قسم الموحدين ، ص 350 ؛ ابن ابي زرع ، الانيس المطرب ، ص 254 .

69- أحمد عزاوي ، رسائل موحدية ، ص 200 .

70- LECOMTE , op , cit , p 157 .

71- ابن عذاري ، المصدر السابق ، قسم الموحدين ، ص 344 ؛ ابن ابي زرع ، الذخيرة ، ص 106 .

72- عاشور بوشامة ، المرجع السابق ، ص 202 .

73- نفسه ، ص 292 .

74-ابن خلدون ، المقدمة ، ص 453 .

75-عاشور بوشامة ، المرجع السابق ، ص 293 .

76-Le comte , op , cit , p 153